

الأحداث الثقافية والتاريخية في الأسطوغرافيا المحلية محمية الجزائر في العهد العثماني نموذجاً د. نعيمة رحمانجي جامعة تلمسان

ملخص:

نحاول في هذه الدراسة طرح مسألة مهمة متعلقة بكيفية تحصيل الأحداث التاريخية غير المغلوطة والمزيفة في خضم كل المؤلفات والتوجهات المختلفة للمؤلفين حول الأحداث التاريخية لمحمية الجزائر في العهد العثماني. من هذا المنطلق يقودنا طرحنا الى التساؤلات التالية؛ ما هي المؤلفات الاسطوغرافية التي عرضت الأحداث بمصادقية، ومن التي أخفقت نوعاً ما في ذلك؟ ولماذا؟ وما البديل المحتمل للحصول على نسبية صدق أحداث عالية؟

الكلمات المفتاحية: الأحداث الثقافية والتاريخية - الاسطوغرافيا المحلية - الجزائر - العهد العثماني

Abstract:

In this study, we attempt to raise an important question related to how to collect non-fake and counterfeit historical events amidst all the works and different orientations of the authors on the history of the protector of Algeria at the time Ottoman. From this point of view, we are asked to ask the following questions: What is the historical literature that presented the events with credibility and which has somewhat failed? And what is the likely alternative for obtaining high probability relativistic events?

Keywords: Cultural and Historical Events - Local histhography - Algeria - Ottoman Era

تمهيد

لقد تناولت الاسطوغرافيا المحلية في العهد العثماني ظروف وواقع الأحداث التاريخية من منظور المؤلفين الاسطوغرافيين الجزائريين، وكان لكل مؤلف في الفترة العثمانية اقليماً وزمناً اختص بعناية وصفه وصفاً دقيقاً؛ فمنهم من اهتم بوصف أحداث الغرب الجزائري، وآخرون اهتموا بالشرق وغيرهم بالوسط والجنوب، ومنهم من حاول وصف الأحداث والجمع بينهم في توليفة تاريخية في خلال رحلاتهم لمختلف مناطق البلاد. وبين اختلاف اهداف ورؤى تلك التأليفات المناوئة والمؤيدة للتوسع العثماني ألفينا أنفسنا نحاول معرفة آليات التعاطي الفكري المحلي مع الأوضاع التي كانت تعرفها البلاد في تلك الفترة.

1) المخطوطات ما بين الموضوعية والذاتية المؤدجة:

إذا ما عرجنا نحو طلب مصداقية الأحداث التاريخية في المخطوطات سنجد الغموض يكتنفها، فجلاًها جُهل أو خُفي عنا مؤلفها وان عُرف فمشكوك في أمره. بيد ان هناك مخطوطات يؤلفها شخص وتُنسب الى شخص آخر لأسباب وظروف قد تؤول الى النسق السلطوي المهيمن وغيره. ومثال ذلك ما حصل للمؤلف الذي يحمل عنوان "اقوال التأسيس عما وقع وسيقع من الفرنسيين"، والذي تُسب الى الشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري، ووضع ضمن قائمة مؤلفاته، والراجح حسب الامام والمفتي الشيخ المهدي بوعبدلي (1907-1992م) انه ليس من مؤلفات الشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري، لأنه أُلّف بعد الاحتلال الفرنسي، أما الشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري فقد توفي حوالي عام 1823م أي قبل الاحتلال الفرنسي بسنوات. ويؤكد الشيخ المهدي بوعبدلي أن مؤلفه الحقيقي هو المؤرخ محمد بن يوسف الزباني

البرجي او احد سكان قرية البرج (مدينة برج عياش المعروفة ببرج ولد المخفي قرب معسكر).¹ كما وعرف مخطوط "دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران" للمؤلف محمد بن يوسف الزياتي (الثالث الأول من القرن التاسع عشر - 1902م) الواقعة نفسها، حيث قارن يحي بوعزيز بينه وبين مخطوط "طلوع سعد السعود في اخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر" للاغا إسماعيل بن عودة المزارى (....-1897م)، وخلص مما لا يدع للشك بان مخطوط "طلوع سعد السعود في اخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر" اما ان يكون المؤرخ محمد بن يوسف الزياتي هو مؤلفه، ونسبه الاغا إسماعيل بن عودة المزارى لنفسه بسبب منصبه في الدولة، او يكون الاغا إسماعيل بن عودة المزارى نقله حرفيا من مخطوط "دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران" للمؤرخ محمد بن يوسف الزياتي، وتصرف فيه قليلا بالحذف والاختصار والتقديم والتأخير، واستغل مركزه كأغا ليقنع شيخه محمد بن يوسف الزياتي او يرغمه على السكوت.² ويذكر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني في السياق نفسه أنه: "قد ذهب بودان (M.Bodin) 1924م الى القول بانه من الشائع عند متعلمي وهران ان كتاب طلوع سعد السعود هو من عمل المؤرخ محمد بن يوسف الزياتي الذي يكون قد تنازل عنه للاغا إسماعيل بن عودة المزارى مقابل نيله وظيفة القاضي".³ ثم ينزع المؤرخ ناصر الدين سعيدوني شك نسب المؤلف الى المؤرخ محمد بن يوسف الزياتي مؤكدا: "رغم كون الاغا إسماعيل بن عودة المزارى رجل سيف وليس صاحب قلم الا ان تقديمه لمعلومات تخص حكومة الباي حسن وتتصل بأفراد عائلته التي خدمت الفرنسيين وسكوته عن بعض الاحداث... تؤكد لنا صحة تأليفه لطلوع سعد السعود".⁴ الملاحظ هنا انه من يستطيع نسب مؤلف الغير الى شخصه، يستطيع تحريف الأحداث التاريخية والتصريف فيها بالإضافة او الحذف او التغيير، وفي هذه الحالة تظل مصداقية الأحداث التاريخية بين البينين. هذان أنموذجان فقط وما خفي كان أعظم.

(2) مصداقية المؤلفات الاسطوغرافية المحلية من منظور المؤرخ ناصر الدين سعيدوني:

من جانب آخر اطلعنا على دراسة غاية في الأهمية أنجزها المؤرخ ناصر الدين سعيدوني وعرض فيها مصداقية بعض المؤلفات الاسطوغرافية المحلية، وقد أثرنا عرض بعض ما جاء في دراسته نقاديا للتكرار البحثي، فقد فصل في مؤلفه "من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"، ما كنا نطمح الى دراسته. حيث تناول المؤلف المشهور "الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" (1636م) للشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحي الفكون التميمي الفكون، المتحسر فيه على مجتمعه الذي انتشر فيه الجهل والفساد والنصب والاحتيال وتلاشت فيه القيم والمبادئ، وعرض فيه معلومات قيّمة عكست جوانب من الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في القرن 16 والقرن 17م. وذكر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني انه "ورد في شكل مذكرات وتقاييد على مراحل مما جعلها تقصر او تطول ولا تخلو من التكرار والاستطراد وتداخل التواريخ، فقلما يذكر تاريخ الولادة، وقد يترك تاريخ الوفاة بياضا اذا لم يتوفر، كما يعتمد الى تسجيل انطباعاته صراحة وبالتلميح ويذكر انطباعات غيره اذا كان لا يعرفهم".⁵ وبخصوص الاديب سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني الذي اضطر الى مغادرة تلمسان بسبب القمع والتكيل بأعيان البلد من قبل القائد التركي حسن علي في عهد الداوي عثمان باشا (1650م)،

فقد ذكر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني أنه ألف العديد من قصائد الشعر الفصيح والعامي وعمّق في معانيها وتوسع في أغراضها وتطرق لمختلف مواضيعها في الغزل والوصف والفخر والمدح والثناء والعتاب والهجاء والتضرع والاستغاثة وغيرها، الأمر الذي يؤكد مكانته في مجال الأدب وبناء القصيدة. وقد اشتهرت قصيدته النونية "الأعلام فيما وقع للإسلام من قبل الترك بتلمسان" في رثاء تلمسان، وهجاء الأتراك، والتي تناقلها المؤرخون وضمنوها مؤلفاتهم.⁶ أما عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن ميمون الجزائري، فقد ذكر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني أنه اعتزل الوظائف وتفرغ للتأليف ونظم الشعر، واشتهر مؤلفه الخاص بسيرة الداي محمد بكداش "التحفة المرضية في الدولة البكداشية" حيث بلغ عدد أبياته 795 بيتاً شعرياً، وقد نال اهتمام معاصريه، إذ حاول في خلاله التقرب إلى الحاكم دون مذلة، فوصف أعماله وجهاده، لكنه بالغ في عبارات الثناء والتعظيم، ومثل ذلك النص التالي: "أبو النصر سيدي محمد أنارت أنواره جميع البلدان وألف ملكه بالإحسان والتفاف الساق بالساق"، كما تضمن المؤلف معلومات تاريخية في غاية الأهمية شملت أوضاع الجزائر في مستهل القرن 18م⁷ وجاء رأي المؤرخ ناصر الدين سعيدوني بأن التحفة المرضية قد: "جمعت... الأسلوب الأدبي والعرض التاريخي، فجاءت عباراتها متينة واضحة في بناء لغوي بليغ محكم يغلب عليه السجع ويميل إلى المحسنات البديعية... مع... استطرادات في ذكر النوادر والروايات، وتكرار في العبارات وتصنع في اللفظ في بعض الأحيان... التزم (الشيخ أبي عبد الله محمد بن ميمون الجزائري) بترتيب الأفكار وتسلسل الأحداث... كما امتاز بالصدق فيما سجله من أخبار... وأحداث".⁸ في حين اعتبر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني الشاعر أبي عبد الله محمد ابن مساييب التلمساني، القلب الخافق واللسان المعبر عن مجتمعه التلمساني، حيث تناقل العامة قصائده في الزهد والتصوف، والغزل، ونال التقدير والاحترام. وقد اشتهر في مجال التراث التاريخي والجغرافي بقصيدته "الرحلة" التي وصف فيها الرحلة من تلمسان إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وعرض أهم المدن والمحطات التي يمضي فيها الحاج، كما أشاد بفضل أولياء وصلحاء تلك المدن. وقد اعتبره المؤرخ ناصر الدين سعيدوني، "بحق أحد المساهمين في اغناء التراث التاريخي الأدبي للمغرب العربي في العصور الحديثة".⁹ وبخصوص الشيخ عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي الجزائري، فقد ذكر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني أنه تتلمذ على يده الشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري، وكان مهتماً بالتاريخ، وحضي بتقدير طلبته واجلال عامة الناس، وقد اشتهر بمؤلفه "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان بوهرا من الأعراب كبنّي عامر"، حيث عرض فيه المهام التي كان يقوم بها الأعراب المتعاونون مع الأسبان والدوافع التي شجعتهم على ذلك، وقام بالتنديد والتشهير بمن كان يمد يد العون من المسلمين للإسبان، ودعى المسلمين إلى الاحتراس منهم.¹⁰ أما الشيخ الحسن بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشرف الورثاني، فقد اشتهر بمؤلفه "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، الذي ضمّن وصف ما شاهده، وملاحظاته وتعليقاته أثناء سفره لأداء فريضة الحج، وقد اشتمل على معلومات مهمة ذات صورّ الحياة اليومية والحالة الاقتصادية والمعاشية والحكم ومستوى الثقافة والعادات، وقد علق المؤرخ ناصر الدين سعيدوني عنه قائلاً: "يتصف إنتاج الورثاني فيما سجله في رحلته... بميزات تحدد قيمته التاريخية ومستواه الأدبي أهمه؛ الالتزام بالصدق في كل

م ورد من أحداث ووقائع، فهو يدلي برأيه بكل صراحة ويجاهر بالحق... تحري الحقيقة، فهو لا يكتفي بما شاهده أو روي له بل يلتجئ إلى الاقتباس من كتب الرحالة السابقين... عرض الواقع كما هو، وهذا ما جعل روايته للأحداث يطبعها التشاؤم... يشتكي انعدام الأمن بالطرق وظلم الحكام وجورهم وضعف الدين وقلة الرغبة في فعل الخير... وينتقد رفاقه وأهله... التحلي بالورع والتقوى، فهو يكثر الثناء للأشخاص الذين نالوا إعجابه... التزامه أسلوبا يتميز بكثرة المحسنات اللفظية والكلمات المترادفة في شكل موزون مع اقتباسات عديدة من القرآن والحديث النبوي الشريف.¹¹ وعن صاحب المؤلف المشهور "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، والذي أشاد فيه بفتح وهران الباي محمد الكبير، وحياة الحكام وجهودهم، ومنشأتهم، وخصالهم، ووصف وهران وعلماءها وفتحها الأول، ووصف مدينة الجزائر، وبدايات الوجود العثماني، وتناول الثقافة العامة والثورة الفرنسية التي عاصرها ووصلت إليه أخبارها قائلا: "لقد قام... الجنس المعلوم بالفرانسييس وهم الفرنج على جميع علمائهم فنقوم من البلاد إلى بلاد الاصبنيول وغيرها، وقتلوا ملكهم، وتركوا الناس فوضى لا ملك لهم ولا عالم."¹² فقد خص المؤرخ ناصر الدين سعيدوني مؤلفه بما يلي: "التزم الحقيقة وتقيد بالصدق ولم يخف عاطفته الإسلامية، فأكد على فضل الجهاد... واستنكر مظالم الأسبان ضد المسلمين، وظهر فضائل العلم والعلماء... في أسلوب أدبي تغلب عليه عبارات السجع الخفيف الذي لا يفسد المعنى... مما يظهر الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي أدبيا شاعرا متذوقا ومؤرخا مدققا."¹³ وتناول المؤرخ ناصر الدين سعيدوني أيضا المؤلف المعروف "رحلة محمد الكبير باي وهران إلى الجنوب الصحراوي الجزائري" للشيخ أحمد ابن هطال التلمساني، الذي سجل فيه وقائع حملة محمد الكبير باي الغرب على الجهات الجنوبية والاقليم الصحراوية التابعة لبابلك وهران بغية إخضاعها، فقال عن أسلوبه: "لقد كان أسلوب للشيخ أحمد ابن هطال التلمساني مرآة تعكس مستوى ثقافة عصره، اذ تميز بالتكلف واستعمال العبارات الركيكة والتعابير الضعيفة."¹⁴ بينما اعتبر المؤلف المشهور "عجائب الاسفار، عجائب الاسفار ولطائف الاخبار" للشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري، وهو في الأصل شرح لقصيدته المعروفة بـ "بنفيسة الجمال في فتح وهران على يد المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان"، اعتبره مصدرا مهما ومرجعا أساسيا تناول تأسيس المدن، وانساب القبائل ومواطن العشائر، وتطور أحداث وهران، ومآثر الباي محمد الكبير. وما عُرف عنه حسب المؤرخ ناصر الدين سعيدوني انه لا يكتفم نغمته على تخاذل الحكام ولا يخفي تأييده للعثمانيين واعجابه بشجاعة وبطولة الجند الإنكشاري بالجزائر، فقال عنه: "اعتماده على الذاكرة وما جمعه من أوراق... وهذا ما اضعف تصنيف المعلومات واضر بترتيب الوقائع... وتداخل الروايات... ملتزم بخصائص أسلوب عصره فجاءت لغته منمقة تميل إلى السجع وتتميز بمفرداتها البسيطة وتعابيراتها القريبة من العامية، وهذا ما جهل كتاب عجائب الاسفار يجمع بين محتوى التاريخ ومظهر الادب، اذ امتزجت فيه الرواية بالنقل واصطبغت الحقائق بالعواطف... ان أبا راس كان مؤرخا ناقلا متتبعا للأخبار معتمدا على من سبقه من المؤرخين... كما كان ادبيا مادحا مؤثرا في العواطف."¹⁵ اما المؤرخ حمدان بن عثمان خوجة، صاحب المؤلف المشهور "المرآة"، والذي عرض فيه مختلف أوضاع الجزائر الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بصفة شمولية ومنهجية، مع تقديمه لمعلومات

جديدة عكست اطلاعه ومعرفته بأحوال المجتمع وواقع الإدارة العثمانية فيه. حيث قال عنه المؤرخ ناصر الدين سعيدوني: "التزم في كل ما عرضه الدقة والصدق في تسجيل الاخبار لانهما ضروريان لإقناع مخاطبه، كما عمد الى ترتيب المعلومات ومقارنتها مما اكسبها منطقية وقربها من ذهن القارئ".¹⁶ وبخصوص الحاج احمد المبارك القسنطيني، ومؤلف الذي اشتهر به "تاريخ حاضرة قسنطينة"، والذي يتضمن معلومات مهمة للأحداث التي عرفت قسنطينة في العهد العثماني، يقول عنه المؤرخ ناصر الدين سعيدوني: "تميز بأسلوبه السهل الذي يغلب عليه ضعف الربط، وبلغته البسيطة التي تتخللها الالفاظ الدارجة والتراكيب العامية التي تعكس مستوى ثقافة عصره... يهمل الحياة الثقافية والأوضاع الاقتصادية ويركز على الأحداث السياسية التي تميزت بتعدد الاضطرابات والفتن وكثرة مظالم البايات التي اثرت حفيظة السكان، وكأنه بذلك يريد ان يثبت محاسن الإدارة الفرنسية... التي كانت تتظاهر بفرض النظام وإقرار العدل... وهو اشبه في هذا المجال بمعاصره المؤرخ صالح بن محمد العنتري القسنطيني".¹⁷ اما الحاج احمد الشريف الزهار، صاحب "مذكرات الشريف الزهار" التي تناولت الفترة الأخيرة من العهد العثماني، وفترة المقاومة بزعامة الحاج احمد باي والأمير عبد القادر، فقد وصف المؤرخ ناصر الدين سعيدوني مذكراته بأنها: "تتميز... بانها سجل حي وواقعي للأحداث التي عرفت الجزائر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى السنوات الأولى للاحتلال... ومما زاد في قيمة تقايد الحاج احمد انها سجلت بأسلوب بسيط مؤثر يميل الى اللغة العامية لم تخضع لمراجعة او تدقيق فبقيت محافظة على هدفها، وبالتالي فهي صورة صادقة عن أحوال الناس وطبيعة الأحداث.... يعتبر من اهم مؤرخي الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، وذلك بما امتاز به من اصالة في الراي وصدق في الرواية وابتعاد عن محاباة الحكام، فكان ما كتبه مرآة صادقة وصورة حقيقية لأوضاع الجزائر قبل الاحتلال".¹⁸ اما عن المؤلف المشهور "تاريخ قسنطينة" لصاحبه المؤرخ صالح بن محمد العنتري القسنطيني، والذي عرف بعناوين مختلفة منها؛ "كتاب الاخبار المبينة لاستيلاء الترك على قسنطينة"، او "الاخبار المبينة في تاريخ قسنطينة"، و"فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على اوطانها"، والذي الفه تلبية للضابط بواسوني متولي المكتب العربي بقسنطينة، اعتبره المؤرخ ناصر الدين سعيدوني: "من أوائل الكتب التاريخية التي عالجت تاريخ قسنطينة بالتفصيل، اعتمادا على الروايات والمشاهدات، والاستناد الى وثائق العائلات العريقة بالمدينة والوثائق الرسمية التي وضعها المكتب العربي تحت تصرفه، وهذا ما جعله ينفرد بإيراد اخبار لم يذكرها غيره من معاصريه، على ان ما يلاحظ تهجمه على الحاج احمد باي، ذلك لان المؤرخ صالح بن محمد العنتري القسنطيني ظل يحمل هذا الباي مسؤولية قتل والده (1837) بعد ان اتهم من طرف منافسيه... بأخذ رشوة من الفرنسيين... ولعل هذا ما جعل المؤرخ صالح بن محمد العنتري القسنطيني يميل الى الفرنسيين ويبيدي اعجابه بإنجازاتهم، وقد أدى نفوره من احمد باي الى اثاره حفيظته على الحكام العثمانيين لا سيما المتأخرين منهم ووصفهم بالضعف والظلم والاستبداد.. .. تميز كتاب تاريخ قسنطينة بالبساطة في التعبير والوضوح في اللغة الا انه لا يخلو من أخطاء لغوية وضعف في التركيب مع الميل الى أسلوب السجع والتكلف واستعمال بعض التعابير العامية المتداولة".¹⁹ وعن الاغا إسماعيل بن عودة المزاري الذي عُرف في خلال مؤلفه "طلوع سعد السعود في اخبار وهران

والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر"، والذي تناول فيه تاريخ وهران وباياتها وأخبار ملوك فرنسا، وصفه المؤرخ ناصر الدين سعيدوني بأنه: "موسوعة تاريخية اشتملت على تراجم العديد من الشخصيات، وجرّد الأحداث ووقائع مختلفة مع اقتباسات متعددة أغلبها جاء في شكل نواذر وقطع شعرية... هذا ما أخل بتوازن المادة التاريخية مما جعل كتاب طلوع سعد السعود يبتعد على التسلسل التاريخي والترتيب المنطقي للأحداث... وقد غلب على القسم الأول السرد... مع وروود أخطاء وتضارب في المعلومات، كل ذلك في لغة سهلة وبسيطة لا تخلو من أخطاء نحوية وإملائية، ويغلب عليها السجع المتكلف الذي لا يلتزم معه بقواعد اللغة، وإنما يركز على توافق أواخر الكلمات." ²⁰ أما الشيخ محمد بن يوسف الزباني، صاحب المؤلف المشهور؛ "دليل الحيران وانيس السهران في أخبار مدينة وهران"، والذي عرّف فيه بوهران وبعض علمائها وأوليائها وباياتها وأصل الفرنسيين. قال عنه المؤرخ ناصر الدين سعيدوني: "اعتمد التقسيم المنهجي... فرتب فصوله حسب الدول التي حكمت وهران... لكنه لم يستطع تغطية تلك لفترة الزمنية كلها مما جعل الكتاب يفتقر إلى التوزيع المتوازن للمادة... ومما أنقص من قيمة العرض الشامل لتاريخ وهران.... إهمال المؤرخ محمد بن يوسف الزباني لفترة الحكم الفرنسي... وهذا ما ضيع على القارئ فرصة التعرف على أحداث هذه الفترة... وبغض النظر عما تميز به أسلوب دليل الحيران من ضعف وما داخل لغته من عبارات دارجة وأخطاء في قواعد اللغة، فإن ما اشتمل عليه من معلومات تاريخية يكسبه أهمية خاصة، ويجعل منه مصدرا تاريخيا رئيسا." ²¹

نلاحظ إذن في خلال أراء المؤرخ ناصر الدين سعيدوني أن بعض المؤلفات الأسطوغرافية المحلية (المصادر) التي تناولت ثيمة الجزائر في العهد العثماني، قد أمدّتنا بصورة صادقة عن الأحداث في تلك الفترة، والتزمت الصدق في الأخبار في خلال عرض الأفكار بشكل مرتب ومتسلسل، كما استشهدت بالروايات ولجأت إلى المشاهدات، واستندت إلى الوثائق الرسمية. ويمثل هذه البضعية؛ الأديب سعيد بن عبد الله المنذاسي التلمساني، الشيخ أبي عبد الله محمد بن ميمون الجزائري، الشاعر أبي عبد الله محمد ابن مسايب التلمساني، الشيخ عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي الجزائري، الشيخ الحسن بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشرف الورثاني، الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الشيخ أحمد ابن هطال التلمساني، المؤرخ حمدان بن عثمان خوجة، الحاج أحمد الشريف الزهار، المؤرخ صالح بن محمد العنتري القسنطيني، المؤرخ محمد بن يوسف الزباني. بينما ساد البعض الآخر من المؤلفات الأسطوغرافية في تلك الفترة أخطاء وتضاربا في المعلومات وتداخلا في التواريخ. فمنها من بالغ في الثناء والتعظيم، والتصنع وأكثر من المحسنات اللفظية والكلمات المترادفة، واستعمل العبارات الركيكة والتعابير الضعيفة، والالفاظ الدارجة والتراكيب العامية، ومنها من اعتمد على الذاكرة فقط الأمر على أضعف من صدق المعلومات الواردة فيها. ويمثل هذه البضعية حسب المؤرخ ناصر الدين سعيدوني؛ الشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى الفكون التميمي الفكون، الشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري، الحاج أحمد المبارك القسنطيني، الأغا إسماعيل بن عودة المزاري. ولكن تظل

هذه المؤلفات الاسطوغرافية ذات أهمية بالغة في معرفة تاريخ الجزائر في تلك الفترة لما احتوته من معلومات قيمة حول الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية وغيرها.

(3) النوازل ما بين الموضوعية والذاتية المؤدجلة:

من جانب آخر نتوجه بدراستنا صوب نوع آخر من المخطوطات نراه أقرب الى ادراج الأحداث التاريخية بنسبية صدق كبيرة وبدون قصد التأريخ، أي أن الاحداث التاريخية وردت فيه تلقائيا مما يرجح نسبة كبيرة من صدقها. نتحدث عن مصدر مهم وهو النازلة وجمعها النوازل، والتي تعبر عن الواقعة والحادثة التي تنزل بالشخص سواء في مجال العبادات او المعاملات او السلوك او الاخلاق، حيث يلجا هذا الشخص الى من يفتيه بحكم شرعي في نازلته. ²² مع العلم ان النوازل مصطلح خاص بالمغربين الأوسط والأقصى، بينما شاع مصطلح فتاوى بفقهاء المشرق. ²³ النوازل اذن من المصادر ذات القيمة الفقهية والتاريخية، فهي تعكس الواقع المعيش وتعرض أحوال المجتمع وتفاعل مختلف مكوناته وفعالياته، وتقدم صورة واضحة عن مختلف مظاهر المعاملات، والمشاكل التي تترتب عنها بين أفراد المجتمع، وتتطرق لمواضيع شتى عن الجبايات ومظاهر القهر التي تنشأ بين المجتمع والدولة، والقضايا المتعلقة بالحياة الدينية والروحية والعلمية للمجتمع. ²⁴ هي اذن انعكاس لواقع المجتمع الجزائري في تلك الفترة بشكل مغاير لا يشبه ما يرد في المؤلفات الاسطوغرافية التي ذكرناها سابقا، فهي تقدم معطيات تتعلق بالمنازعات على الماء والأرض والمحاصيل ومشاكل الشراكات في التجارة والفلاحة وقضايا الاحباس والجهاد والإقامة، كما انها تحتوي على الرسوم وأسماء الشهود وأسماء المتخاصمين وموضوع الخصام ومكان المراسلة، وهي كلها مؤشرات على صحة محتوى هذه النوازل وتاريخها. ²⁵ كما تعرفنا على أسماء بعض الملوك والامراء وعامة الناس الذين استفتوا في مسألة ما، وعلى أسماء القضاة الذين تمت استشارتهم بشأن قضايا كانت معروضة عليهم، وعلى الأماكن التي صدرت منها النوازل. ²⁶ كما تعكس النوازل قضايا بيئات الفقهاء في ازمة محددة، وقضايا جهوية في خلال الأسئلة التي ترد من المدن المجاورة، ويعود ذلك الى إشعاع الفقيه المفتي، وانتشار تلامذته في المدن المجاورة، كما انها لا تختص بالقضايا الحضرية فقط، بل منها ما يرتبط بالبوادي النائية، شبه الصحراوية، كما وتعكس صراع القبائل، والفصل في امور الحلال والحرام. ²⁷ وكنماذج للنوازل نذكر، مؤلف "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للمؤلف ابي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني (830-883هـ) (1478م) الذي غطى الفترة من القرن 14م-15م، وهو مؤلف لا يخص نوازل مازونة فحسب ، وانما يشتمل على جزء كبير من النوازل الخاصة بمنطقتي بجاية وتلمسان، بالإضافة الى افريقية والمغرب الأقصى والاندلس، ومن ثم فان تسميته قد تكون نسبة لمؤلفه المازوني ابن المدينة وقاضيه. ²⁸ تعكس هذه النوازل ظروف الغرب الأوسط، اين صارت البوادي عرضة لتأثيرات اشياخ القبائل والمتغلبين واشياخ المتصوفة وهو ما ساهم في ادخال البلاد في دوامة من العنف وانعدام الامن والاستقرار. ²⁹ وهو من المصادر الفقهية التي تقدم لنا بعض المعلومات التاريخية المهمة لتلك المناطق في خلال الأسئلة المطروحة التي تعكس الظروف الحياتية للسائل. ونستحضر ايضا "كتاب النوازل لابن الفكون" في القرن 16 و17م والذي يمد الباحث في المجال التاريخي بجوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بايلك قسنطينة. كالزواج، الطلاق، دور المرأة، الأوقاف، الوضع الصحي،

الأوبئة، الفئات الحاكمة، العادات والتقاليد، اللباس، الشربة والغصب وقطع الطريق، الرشوة، الزراعة، الصناعة، التجارة، النظام النقدي، المعاملات المالية. يمكننا القول ان النوازل مؤلفات تضمنت احداثا تاريخية وفقهية واقتصادية واجتماعية قد لا تتوفر في كتب التاريخ أحيانا، وفي مرآة صادقة بنسبة كبيرة للأحداث التاريخية والسوسيو اثربولوجية لقضايا المجتمع في الفترة. لكن المشكلة التي تصادف الباحث في المجال التاريخي هو اختلاط المعلومات التاريخية بالجانب الفقهي، الأمر الذي يتطلب منه تصفيته واستخلاص النص التاريخي، بيد ان النوازل مكتوبة بلغة وأسلوب تخصصي فقهي. فسؤال النازلة مهم جدا لأنه يعكس جوانب اجتماعية وثقافية واقتصادية ودينية وسياسية وغيرها لمجتمع السائل، اما إجابة النازلة فهي تعكس فكر الفقيه وثقافته. لكن السؤال الذي نفسه بالباحث؟ هل السائل صادق فيما سال عنه وفيما عرضه عن مجتمعه؟ ام انه يتناول الأحداث بما يخدم قضيته ويؤثر في مجرى الافتاء؟ فقد يعرضها بصدق او قد يزيّفها؟ في هذه الحالة وجب على الباحث في المجال التاريخي التأكد من خلفية المفتي الثقافية وفي جميع المجالات الخاصة بمجتمعه والمجتمعات المجاورة. لهذا نعود وناكد ان المعلومات التاريخية في أي مصدر وضعي تبقى نسبية وغير مطلقة.

خاتمة

ختاما نجد ان الباحث في المجال التاريخي واثناء النهل المعلوماتي سيقف حائرا امام اختلاف الدوافع والاعراض، من يقول الحقيقة ومن يصطنعها ومن يزيّفها؟ لهذا وجب عليه الحذر من استصدار احكام تاريخية بمجرد العودة الى مؤلف واحد سواء كان شعرا او نثرا او نصا تاريخيا او نازلة، والاجدر معرفة الخلفيات والمنطلقات الثقافية لكل مؤلف، وتظل تلك المعلومات التاريخية نسبية لا مطلقة.

الهوامش:

¹ الاغا إسماعيل بن عودة المزارى، طلع سعد السعود في اخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن التاسع عشر،

تحقيق يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ج1، دت، ص44-45

² المصدر نفسه، ص44

³ ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999م، ص569

⁴ المرجع نفسه، ص569

⁵ المرجع نفسه، ص354

⁶ المرجع نفسه، ص370-371-372

⁷ المرجع نفسه، ص399-

⁸ المرجع نفسه، ص401

⁹ المرجع نفسه، ص413-407-405

¹⁰ المرجع نفسه، ص419-420-421

¹¹ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي،

عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2013 م، ص224

¹² ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص439-440-441-442

- ¹³ المرجع نفسه، ص 448
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 462-463-464-465
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص 491-492-493
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص 510-511-517
- ¹⁷ المرجع نفسه، ص 516-
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص 533-534-535
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 568-570
- ²⁰ المرجع نفسه، ص 588-590 589-591
- ²¹ الحسن الزين الفيلالي، النوازل المغربية ودورها في حفظ فتاوى اعلام المذهب المالكي بالقيروان، ملتقى القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية ق5هـ، مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، تونس، 1995م، ط1، ص 229
- ²² هناء شقطني، الخطاب الفقهي والريف في لمغرب الأوسط من خلال الدرر المكنونة في نوازل مازونة، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2012م-2013م، ص 8
- ²³ محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 الى 9هـ/12-15م، جامعة الحسن الثاني، 1999م، ص 19
- ²⁴ المرجع نفسه، ص 21
- ²⁵ المرجع نفسه، ص 12
- ²⁶ المرجع نفسه، ص 14
- ²⁷ هناء شقطني، مرجع سابق، ص 5
- ²⁸ محمد فتحة، مرجع سابق، ص 13
- ²⁹ بلخواس الدراجي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بايلك قسنطينة من خلال نوازل ابن الفكون خلال القرنين 16-17م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2012م. ص 35